

من هم السلف؟ (الجزء الأول)

لذلك كما قلنا مراراً؛ عظمة الإسلام في بساطته؛ ولكن العامة لا يعرفون أن السلف اختلفوا من التقاتل إلى التلاعن إلى التطاعن؛ فأى سلف تريدون؟
ثم يأتي السؤال الأخير وهو: من قال لكم أن اتباع السلف شرع؟!
إذا اتبعتم في أخطائهم فأنت مذنب؛ وإن اتبعتم في صوابهم فأنت متبع للنص أصلاً؛ بمعنى إذا اتبعتم في وجوب الصلاة والصدق وتحريم الزنا والسرقة فأنت متبع للنصوص لا لهم؛ وإذا اتبعتم في ذنوبهم فلن يحموك من الذنب والعقوبة

من أكثر الألفاظ التي تحتاج لتحرير كلمة (السلف)؛ فهي محل خلاف كبير من قديم وإلى اليوم؛ ليس هناك اتفاق على تعريفها ومدى شرعيتها.
دعونا نأخذ تعريفاتهم الشائعة ونحاول مساعدتهم على فهم أدق لها -قبل النظر في شرعيتها من عدمه؛ نبدأ بالرأي الأوسع وهو: ما عليه القرون المفضلة؛ يعنون ما عليه الناس في القرون الثلاثة الأولى بدلالة حديث (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، فهم يقولون هؤلاء قدوتنا.
دعونا نناقش هذا القول (وهو الأوسع المشهور) ونقول للأخوة المعتقدين هذا:
الناس في القرون الثلاثة الأولى فيهم الكافر والمنافق والضال.. الخ؛ والحديث الذي تروونه وتصحونه فيه كلمة (الناس) = خير الناس قرني.. الخ؛ ولا ريب أن الكافر والمنافق من الناس؛ ولا ريب في وجودهما في تلك القرون؛ فإذا قالوا: المقصود بالناس في الحديث وفي عقيدتنا المسلمون فقط! فهو من اللفظ العام الذي يراد به الخاص. قلنا حسناً؛ المعتزلة وغيرهم مسلمون؛ فالمعتزلة والجهمية والشيعة والخوارج والنواصب مسلمون؛ وهم موجودون قطعاً في القرون الثلاثة الأولى؛ وهم من الناس قطعاً فما قولكم؟
سيقولون: سنخرج أهل البدع من عموم (الناس) ونقصد بالناس في القرون الأولى الصحابة والتابعون فقط.
حسناً؛ الإمام أحمد ليس من هؤلاء ولا هؤلاء؛ فالإمام أحمد والبخاري ومسلم والشافعي ومالك وأمثالهم ليسوا من الصحابة ولا التابعين؛ فهل هم من السلف أم لا؟
سيقولون: نعم هم منهم.
إذا عدلوا؛ عدلوا عبارتك وزيدوا فيها (واتباعهم) أي أن السلف هم الصحابة والتابعون واتباعهم.
هنا نقول: ابن تيمية متأخر ليس منهم ت ٧٢٨؛ فعدلوا العبارة؛ إذا قولوا: السلف هم الصحابة والتابعون واتباعهم واتباعهم واتباعهم واتباعهم.. الخ؛ حتى تصلون لكل من تحبون إدخاله في السلف؛ أي كرروها ١٥ مرة! فهذا اللفظ وإن كان طويلاً لكنه يأتي على جميع من ترون الاقتداء به؛ ولكن ستواجهكم مشكلة أخرى، وهي بطلان خصوصية القرون الثلاثة بالاقتداء؛ وهنا لابد من حل المشكلة بعبارة مناسبة، مثل: السلف ما عليه الناس من الصحابة والتابعين واتباعهم ثم من سار على نهجهم من القرون اللاحقة.
ولكن ستواجهكم مشكلة أخرى؛ وهي أن بعض سلفكم ذم بعض الصحابة كذمهم الوليد بن عقبة المفسق وحرقوص بن زهير الخارجي وأبا الطفيل الشيعي؛ فهم صحابة؛ وستجدون بعض التابعين ذمهم سلفكم أيضاً كالحجاج ويزيد ونافع بن الأزرق والجهم بن صفوان والجعد بن درهم.. الخ؛ فكلهم من التابعين. هنا لابد من ترميم آخر للنظرية؛ مثل أن تقولوا: السلف ما كان عليه بعض الصحابة وبعض التابعين وبعض من تبعهم وبعض من تبعهم.. الخ؛ كرروها ١٥ مرة؛ هنا ستقعون في مشكلة أخرى تحتاج لترميم للنظرية مجدداً؛ وهي أن ذلك (البعض) الذي تروونه واجب الاتباع؛ قد قاتل بعضهم بعضاً وذم بعضهم بعضاً؛ فالقتال بين الصحابة مشهور سواء بين أبي بكر ومالك بن نويرة أو بين عثمان والمعارض أو بين علي والمعارض؛ فكيف تستطيع الاقتداء بالأضداد؟ والتضليل بين التابعين مشهور، كما بين الشعبي والحارث الأعور، أو بين الحسن وابن سيرين، أو بين أبي حنيفة وأيوب السختياني، وكلهم تابعون؛ فلا بد من ترميم آخر؛ مثل نحن نقندي بمن بعدهم كالأنمة للأربعة وأصحاب الصحاح والسنن؛ لأنهم محصوا واختاروا لنا عقائد؛ مثل السكوت عما شجر بينهم .
هنا سنضطر لأكثر من ترميم أيضاً :
أولاً: أبو حنيفة تابعي وليس ممن أتى بعدهم؛ فأخرجوه وقولوا كأمثال الأنمة الثلاثة وأصحاب الصحاح والسنن.. الخ.
ثانياً: أنهم لم يسكتوا عما شجر بينهم؛ فالشافعي لم يسكت عما شجر بين الصحابة؛ وخصص مساحة من كتابه الأم لمناقشة السيرة في قتال أهل البغي؛ فليكن تعديل العبارة وإخراج أبي حنيفة والشافعي على الأقل من السلف الذي تقولون باتباعهم؛ فأبو حنيفة قال بخلق القرآن والشافعي طعن في صحابة.

ولكن ستواجهكم مشكلة أخرى؛ وهي أن الحنابلة طعنوا في البخاري ومسلم وجعلوهما من الجهمية لمسألة اللفظ (اللفظ بالقرآن)؛ وضعفوهما وبدعوهما؛ فالإمام الذهلي شيخ البخاري كان من أئمة الحنابلة؛ وكذلك أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان؛ هؤلاء رموز التيار الحنبلي ضعفوا البخاري ووصفوه بالبدعة؛ فلا بد من إخراج أحد الفريقين؛ إما التيار الحنبلي بعد أحمد بقيادة الذهلي أو التيار الآخر بقيادة البخاري ومعه مسلم؛ فيتم ترميم العبارة كالتالي:

السلف ماكان عليه الصحابة إلا حرقوص بن زهير والوليد بن عقبة.. الخ؛ والتابعون إلا أبا حنيفة والجهم.. الخ؛ والأئمة الأربعة إلا أبا حنيفة والشافعي؛ وأصحاب الصحاح إلا البخاري ومسلم.. الخ؛ وإذا اخترتم البخاري ومسلم على خصومهما فقولوا إلا الذهلي وأبا زرعة وأبا حاتم والحنابلة بعد أحمد.. الخ؛ وعلى أي المذهبين اخترتم؛ سواء مذهب الحنابلة والذهلي أو مذهب البخاري ومسلم؛ فسواجهكم افتراق آخر؛ لابد من إخراج النسائي والطبري وابن خزيمة.. الخ؛ هذا الافتراق على رأس الثلاثئة النسائي ٣٠٣ الطبري ٣١٠ ابن خزيمة ٣١١؛ هؤلاء من المبتدعة عند التيارين المتبادعين من قبل؛ فلا بد من إخراجهم!

وسواجهكم افتراق آخر فيجب فيه إخراج ابن حبان ٣٥٤ وكان أشعرياً؛ وكذلك الحاكم ٤٠٥؛ والبيهقي ٤٥٨؛ وابن حزم ٤٥٦؛ وغيرهم كثير لابد من إخراجهم!

المقصود:

أن التعريف الأوسع (ماكان عليه الناس في القرون الثلاثة الأولى) باطل؛ وكذلك بقية التعريفات؛ إلا بعد إخراج الذين بدعهم من ترونيهم سلفاً؛ ربما الأفضل تعديل التعريف كله بأن يقال: اتباع السلف الذين دلت النصوص على صحة آرائهم في القضايا المختلف فيها؛ في القرون الثلاثة ومن بعدهم.

ولكن هذا التعريف سيواجه إشكالات؛ وهو أن الأصل سيصبح النصوص وليس الأشخاص؛ وستتيحون للشيعنة والمعتزلة والأحناف الاحتجاج بالنصوص الشرعية؛ فهذا التعريف؛ وإن كان شاملاً وأدق علمية؛ إلا أنه خطير؛ لأنه سيجعل لنصوص القرآن والسنة الأولوية في الاتباع؛ وليس الانتساب إلى السلف!

أقصد أنه خطير على من يرى وجوب الانتساب إلى السلف واتباعهم؛ لأنه يجعل السلف ثانويين؛ وليس خطيراً على من يؤمن باتباع ما أنزل الله من نصوص؛ والأخطر من ذلك كله أن كلام فلان وفلان من خصومكم سيطلع صح! وهو أن الأصل اتباع ما أنزل الله إلينا وليس اتباع سلف ولا خلف؛ وهذه كارثة!

لذلك كما قلنا مراراً؛ عظمة الإسلام في بساطته؛ ولكن العامة لا يعرفون أن السلف اختلفوا من التقاتل إلى التلاعن إلى التظاعن؛ فأي سلف تريدون؟

ثم يأتي السؤال الأخير وهو: من قال لكم أن اتباع السلف شرع؟!!

إذا اتبعتمهم في أخطائهم فأنت مذنب؛ وإن اتبعتمهم في صوابهم فأنت متبع للنص أصلاً؛ بمعنى إذا اتبعتمهم في وجوب الصلاة والصدق وتحريم الزنا والسرقة فأنت متبع للنصوص لا لهم؛ وإذا اتبعتمهم في ذنوبهم فلن يحموك من الذنب والعقوبة. إذاً لنأتي القصة من آخرها ونقول:

الواجب هو اتباع ما أنزل الله وطاعة الرسول ولا بأس بالتأسي بمن وافق النصوص فيما أصاب فيه فقط؛ ومع شرط مهم؛ الشرط هو أنك إذا تأسيت أو اقتديت بفلان أو فلان فلا بد أن تتوي اتباع النص والبرهان الذي عرضه إذا اقتنعك لا اتباعه هو؛ فنية اتباعه هو شرك.

بمعنى أنا أقول فلاناً ليس لأنه فلان ولا لأنه من مذهبي ولا لأنه يستحق الاتباع وإنما لأنني أرى أنه أعلم مني بالشرع فالنية تكون اتباع الشرع؛ والنية خطيرة جداً فمن نوى اتباع فلان حباً له ولا يهمله أصاب أم أخطأ فقد وقع في الشرك فالدين كله لله ليس لفرد ولا مذهب فصحبوا النيات لله.

لاحقاً سنبين أن لكل قوم سلف من الصحابة والتابعين واتباعهم لخ والمعيار في الفصل هو النص القرآني أولاً ثم ما وافقه من السنة وليس سلفاً ضد سلف.

الخلاصة

بقي موضوعان:

الأول: سلف الفرق الأخرى؛ فكل سلف.

الثاني: ما معيار الصلاح في قولهم (السلف الصالح)؛ هل هو النص أم الهوى؟

نناقشهما لاحقاً؛ فعندما تقول فلان من السلف الصالح، فما معيار هذا الصلاح؟

هل هو الصلاح المذكور في القرآن أم الصلاح المذهبي الذي يعني التحزب؟

وما نسبة هذا وذاك؟

بمعنى: هل الصدق والعدل والصلاة وصلة الرحم واجتناب المحرمات من معايير الصلاح أم لا؟

فإن كان منها فلماذا إخراج من يطبقها؟

وإن لم يكن فلنا كلام؛ فنحن لم نناقش إلا لفظة السلف ومعيارها، ولم نناقش معيار (الصالح)؛ فهذه فيها إشكالات أكثر؛ وتحتاج لترميمات وتعديلات أوسع وأعمق وأكثر حرجاً.

ما معيار الصلاح في السلف (الصالح)؟ (القسم الثاني)

حاولنا تسليط الضوء على (السلف) في الموضوع السابق؛ وتبين أن السلف كانوا مختلفون من السيف فما دون؛ وأثبتنا بأن (الناس) في القرون المفضلة كان فيهم المؤمن والكافر والمنافق والمخلص والضال والمهتدي والمجرم والمسلم؛ فیمتنع اتباع الجميع.

وأثبتنا بأنه حتى من يصنفون بأنهم من (السلف الصالح) بدع بعضهم بعضاً؛ ووصل التبديع والتضليل لمثل أبي حنيفة والشافعي والبخاري ومسلم.. الخ؛ بل صفوة من يطلق عليهم السلف تقاتلوا وتلاعنوا وضلل بعضهم بعضاً؛ فإذا كانوا لا يرون وجوب اتباعهم؛ فكيف يرى من بعدهم ذلك؟ وكيف تتبع اختلافهم؟

بمعنى أن الذين نقول بوجوب اتباعهم هم أنفسهم مجمعون على أنه لا يجوز اتباعهم ولا يمكن اتباعهم؛ وإنما كانوا يدعون اتباع النص؛ صدقوا أو كذبوا؛ فإجماع السلف القديم من الصحابة والتابعين على تحريم اتباعهم أقوى من إجماعهم على وجوب اتباعهم؛ أي أن إجماعهم على اتباع النص لا هم هو الأظهر؛ فالسلفي الحق هو من لا يرى اتباعهم وليس من يرى اتباعهم! لأنهم مجمعون على الأولى وليس على الثانية؛ الثانية نتيجة تلفيق اضطراري للجدل فقط. كيف يستطيع أحد التابعين - مثلاً - أن يتبع السلف في عهد الإمام علي مثلاً؟ يقاتل مع علي مرة ومع أهل الجمل مرة ومع معاوية مرة ومع الخوارج مرة ومع أهل الجمل مرة ومع علي مرة ومع أهل الجمل مرة ومع معاوية مرة ومع الخوارج مرة ومع المعتزلين ومع الموتدين من بني ناجية؛ فإذا أتبعهم جميعاً سيخالفهم جميعاً! والمشكلة أنهم جميعاً لا يرون اتباعهم؛ هم مجمعون على اتباع النص أو الحق أو الشرع.. الخ؛ بغض النظر عن الصادق منهم والكاذب المحق والمبطل.. الخ؛ بمعنى أن السلف مجمعين - من علي بن أبي طالب إلى الخريت بن راشد الناجي مروراً بمعاوية والخوارج - على أن الأمر باتباع الجميع بدعة ومتعذر أيضاً!

إذاً كل الكتب المؤلفة في (وجوب اتباع السلف) تحمل عقيدة لا يراها كل السلف؛ الصالح منهم والطالح! فالصحابية - حسب الشائع - موزعون على الجميع؛ قد يجادل بعض الاتباع ويقول: يمكننا أن نقاتل مرة ونعتزل مرة ثم في القتال نقاتل مع كل فرقة ونبدع الأخرى حتى نضمن أننا اتبعنا الجميع!

ولكن هذا الرأي هو ضلالة وجنون بإجماع أهل العدالة والضلالة معاً؛ وهو رأي غريب لا يمكن لعاقل قبوله؛ وإذا لم يمكن اتباع هؤلاء فمن دونهم أولى؛ وكذلك قد يرى المقلد وجوب اتباع السلف الذين كفروا أبا حنيفة وبدعوه كالثوري والحمادين وشريك.. الخ مع اتباع أبي حنيفة في تضليلهم واستغنائهم.. الخ؛ ولكن هذه أيضاً لا يمكن تحقيقها! ولم يكلفك الله باتباع جميع السلف ولا بعضه؛ إنما أمرك باتباع ما أنزل الله؛ فأنت من تشقي نفسك وتكلفها فوق وسعها؛ والمشكلة أن الاختلافات السلفية لم تنته؛ ستواجهك حيرة في اتباع الحنابلة والذهلي وأبي زرعة في تبديع البخاري ومسلم والكرابيسي.. الخ أو العكس؛ وهكذا استمر التنازع السلفي من القرن الأول إلى اليوم فما الحل؟ قد تقول: سنتبع ما أجمعوا عليه ونتوقف فيما اختلفوا فيه!

ولكن ستواجهك مشكلة! وهي أن الأطراف المتنازعة لا يقبلون منك هذا الحياد؛ بمعنى إن لم تضلل وتبدع أبا حنيفة والبخاري ومسلم.. الخ فأنت عند الذهلي والحنابلة مبتدع! فإذا قلت أن الحنابلة اليوم لا يبدعون أبا حنيفة والبخاري ومسلم.. الخ قلنا لك: هذا ما تركه المعاصرون من عقيدة سلفهم مما هو مسطر في عقائدهم؛ وأنت تقول باتباع السلف لا باتباع الخلف؛ فالمعاصرون هم من الخلف الذين يجب عليهم اتباع السلف وليس العكس؛ فأنت تنقض نظريتك كلها بهذا الاختيار! ولو فتشت في المعاصرين ستجد منهم من بقي على ذم أبي حنيفة - مثلاً - كمقبل الوادعي وغيره؛ ومنهم من يضعفه فقط كالألباني؛ ومن يمدحه؛ فتتبع من؟! قد تقول: اتبع من كان معه الدليل! فالدليل هو الحجة لا الناس!

قلنا: هذا ما قلناه لك من قبل؛ تعود إليه؛ بأن الواجب عليك اتباع الدليل لا الأشخاص. ولكن انتبه! فكلارك هذا - في اتباع الدليل والبرهان - خطير جداً؛ لأن هذا سيجعلك تقبل بالدليل ممن أتى به؛ انتسب للسلف أو لم ينتسب؛ فماذا يعني؟ يعني إقرارك ببطلان اتباع السلف كنظرية؛ وأن النصوص فوق السلف والمذاهب يعني ستكون هي الأصل؛ وهذا خروج من السلفية برمتها ومن المذاهب كلها! وإذا أنت قلت: لا يهمني إلا النص وما أراه حقاً أدين الله به؛ فستكون منبوءاً مبتدعاً ضالاً عند من يخالفك؛ فهل أنت مستعد لعبادة الله وحده؟

وإذا أنت قلت: سأختار لي سلفاً صالحاً اقتدي به؛ فما معيار الصلاح عندك؟ بعض سلفك الذي تراه صالحاً يرى أن تقتل من خالفك ولو في الجهر بالنية! بمعنى أي صلاح تفصد؟! إذا قلت: الصالح من اتنى عليه العلماء! قلنا: تعيدنا لأول الطريق؛ فأنهم مثلما أتى بعضهم على بعض فقد ذم بعضهم بعضاً؛ وإذا قلت: سأخذ بأقوال من أثق فيهم من العلماء في تعريف الصلاح سأنتقي وأقارن وأبحث فمن اقتنعت بأنه صالح فهو من (السلف الصالح) ولو عاصرنا إنقول: حسناً فهل الله نفسه ممن تثق فيهم في تعريف الصلاح وخصاله؟ هل خطر على بالك أن تدخل أقواله ضمن الأقوال التي تثق فيها في معرفة الصلاح؟

فإذا قلت: نعم - ولا أخالك إلا ستقولها - فهل أجهدت نفسك في استخراج (معيار الصلاح) من القرآن؛ كما تجهد نفسك في استخراج من غيره؟

قد نقول: ولكن القرآن صعب؛ واحتاج لتفسير؛ بينما أقوال العلماء واضحة! فهم يقولون : هذا مبتدع وهذا سني هذا مهتدي وهذا ضال هذا صالح وهذا فاسد؛ نقول : هل نصدق كلامك بأن القرآن صعب وغامض أم نصدق الله بأن القرآن (مبين) و (آيات بينات) وميسر ومحكم وهدى ونور؟ لماذا لا تحاول جمع الآيات التي فيها لفظة (الصالح) وتنتظر بعد ذلك هل القرآن غامض أو مبين؟ ميسر أم معسر؟ نور أو ظلمات؟ هدى أو ضلالة؟ جرب!

ثم من قال لك أن أقوال العلماء واضحة؟ هل لهم قول واضح في الفتنة؟ في حروب الصحابة؟ في الأشاعرة؟ في أهل الرأي؟ بل في العقل؟ في القرآن؟ الخ

مجرد قولك (القرآن صعب أخذه ممن؟ من القرآن أو من العلماء؟ أحد سلفك يقول بالإمسك عما شجر بين الصحابة ويؤلف المصنفات في ذلك! أي وضوح هذا؟ لا أريد الآن مناقشة وضوح العلماء من عدمه ولا في صدقهم من عدمه؛ أريد أن نتفق على أن الله صادق بأن القرآن مبين وميسر ومحكم ومفصل وهدى ونور؛ فإذا اتفقنا على هذه المقدمة وأن القرآن كما ذكر الله؛ وأن المحكمات تكفيك دون الخوض في المشتبهات (إذا لم تكن من الذين في قلوبهم زيغ) اتفقنا؛ الذين في قلوبهم زيغ هم فقط؛ من يذهب للمتشابهات قبل النظر في المحكمات؛ وهذا كبر يا أخي المحكمات تكفيك ليست المشتبهات من شأنك فدعها لأهلها؛ احذر من الزيغ؛ احذر أن تقول: ما معنى هذه الآية (وتجلب آية من المتشابهات وتهمل المحكمات)؛ واحذر من السعي معاجزاً قاتلاً: القرآن ما فيه كذا

الزيغ هذا يفعله المتكبرون لإسقاط القرآن للتشكيك في أنه مبين وميسر ونور وهدى؛ هم يسعون في آيات الله معاجزين يريدون إثبات عجزه! وأنهم أكمل! لذلك صاحبنا - الافتراضي - يقول: القرآن صعب غامض! سبحان الله هل الصدق صعب؟ هل العدل صعب؟ هل ترك تركية النفس صعب؟ هل بخص الناس أشياءهم صعب؟

القرآن الكريم يستفيد منه القلب السليم؛ أما القلب اللينيم المليء بالزيغ والكبر وعبادة البشر فسيبقى يرى القرآن قاصراً عن بيان الصلاح والهداية؛

هذه مقدمة بضرورة اعتماد القرآن في (معيار الصلاح)؛ ووجوب الثقة به؛ وبأنه يستحيل ألا يتضمن خصال الصلاح وبوضوح شديد؛ وسيتبع في القسم التالي من (معيار الصلاح) استعراض أبرز خصال الصلاح في القرآن الكريم؛ وأن الصلاح فيه أوضح وأشمل مما يظنونه في كلام علمائهم.

ما هو الصلاح في القرآن ! (الجزء الثالث)

قلنا لو أننا اتفقنا أن اتباع (السلف الصالح) شرعي- وهذا محل خلاف كبير- فما هو الصلاح في القرآن؟ لأنه لا يجوز أن أبحث عن علامات الصلاح ومعاييره في أقوال الناس ولا أبحث عن ذلك في القرآن الكريم؛ اتفقنا أن الله أعلم بدينه وأصدق قیلاً. وكل من يرفض تعريف الله للصلاح؛ ويقبل بشغف على تحديد البشر له؛ فليس صالحاً؛ بل يكون من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله.

والصلاح في القرآن الكريم مادة ضخمة جداً؛ ويستوجب بحثه بحث الجذر (ص ل ح) واشتقاقاتها؛ وهي مادة تستوجب بحثاً مفرداً؛ ولا يمكن إشباعها هنا؛ ولكن تستطيع التعرف على ملامح (الصلاح) وخصاله العامة؛ ببحث ثلاثة أمور:

- ١ - بحث مادة (ص ل ح).
- ٢ - مما يذكره الله من أضدادها.
- ٣ - السياق.

ونصيحة: عند تدبرك القرآن ألا تطمع في الاستيفاء؛ يكفيك الخطوط العامة؛ أو أبرز الخصال؛ أو الزبدة (كما يقال عند العامة) لأنه لكل معنى تشعباته؛ فالصلاح في القرآن ستجد له أضداداً كثيرة؛ منها الظلم والإجرام مثلاً.

إذا فكل ظالم أو مجرم ليس من (السلف الصالح)؛ لأنه يفتقد معنى (الصلاح)؛ بينما المذهب يحشر لك الصالحين والظالمين فيجعل كل أولئك من (السلف الصالح)؛ فالمذهب يفرح بالكثرة؛ والله يؤكد على التمييز بين الخبيث والطيب.

قبل أن نتوسع في المقارنة بين معنى الصلاح في القرآن والصلاح في المذهب؛ يحسن بنا أن نذكر شيئاً من خصال (الصلاح) في القرآن الكريم لاعتمادها؛ من معالم (الصلاح) في القرآن أنه ليس خاصاً بالمسلمين ولا محصوراً فيهم؛ بل هو فيهم وفي غيرهم؛ أي الأخلاق العالمية

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [62] البقرة

فعمل الصالحات هنا ليس خاصاً بالمسلمين كما ترون؛ ففي اليهود والنصارى والصابئين من يعمل الصالحات أيضاً؛ ومن عمل الصالحات فهو صالح عادة؛ بل ذكر الله ذلك صريحاً في حق (أمة) من أهل الكتاب؛ إذ قال (وأولئك من الصالحين)؛ فالصلاح أخلاق عالمية تتعدى المسلمين

(لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) [115] آل عمران]

وعلى هذا الاكتشاف الأول يصبح من خصص (السلف الصالح) بالمسلمين في القرون الثلاثة الأولى جاهلاً بسعة هذا الصلاح وعالميته وجاهلاً بالقرآن؛ وعلى هذا فمن جهل القرآن أو تجاهله فلا يكون من (السلف الصالح)؛ لأنه إن جهله فهو جاهل وإن تجاهله فهو متكبر؛ وقد نهى الله عن اتباع هؤلاء.

هذا أول اكتشاف قرآني يخرج أكثر (السلف الصالح) مذهبياً؛ من (السلف الصالح) قرآنياً؛ علماً بأن الصلاح في القرآن موضوع آخر غير الشعائر؛ وسيأتي؛ وهذا المعنى القرآني العالمي للصلاح؛ يبيح لك - وفق من يرون اتباع السلف الصالح - أن تدخل صالحي الأديان الأخرى في السلف؛ ويفيدك بأن معناه آخر؛ بمعنى أن الصلاح ليس الشعائر الخاصة بالمسلمين؛ ولا حتى العقائد الخاصة بالمسلمين؛ هي أعمال تتفق على صلاحها البشرية كلها؛ كالعدل والصدق.. الخ؛ بل ورد هذا في القرآن صريحاً في حق بعض أهل الكتاب الذين قالوا (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة)؛ فرد عليهم القرآن :

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۖ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (82) البقرة

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات من المسلمين أو أهل الكتاب فلهم أجرهم عند ربهم؛ فهذا يدل على أن عمل الصالحات فوق خصائص الأديان؛ هي غاياتها؛ ولذلك فالصلاة مثلاً هل تدخل في عمل الصالحات أم هي من الشعائر؛ وتكون الصالحات فوقها؛ بدليل عطفها على بعض؛

اقرأ الآية :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [277] البقرة)

وعلى هذا فمن كان مسلماً مؤدياً للشعائر لكنه يظلم ويستكبر ويجرم فلا يكون قد عمل الصالحات؛ وقد يكون غير المسلم ممن يعمل الصالحات؛ ليش لا؟

هذا على افتراض أن معنى المسلم هو ذلك المعنى السائد؛ فالإسلام في القرآن شرحناه سابقاً بأنه الإقبال ثم التسليم ثم عمل الصالحات. نحن وسعنا (الصلاح) ليشمل المسلمين وغيرهم؛ مع أن هناك فرقاً بلا شك؛ بين الصالحين ومن عمل صالحاً؛ فالأعمال الصالحة آحاد الصلاح؛ فهو نسبي.

والآن سنوسع الصلاح أفقياً؛ فليس خاصاً بالعلماء؛ بل هو ممتد في العامة؛ من عبید وجواري؛ فلماذا يتم استبعادهم؟ (وَأَنْكَحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] (32) النور) وسنضيق لاحقاً الصلاح وفق القرآن ليخرج أكثر من يقال لهم (علماء السلف) من الصلاح القرآني؛ الذي من أسسه الأخلاق الكبرى كالعدل والصدق. وهذه التوسعة وهذا التضييق ليس مزاجياً؛ نحن نترك للقرآن تعليمنا؛ لم أنقل حتى الآن حديثاً ولا أثراً ولا فتوى؛ فليشكل القرآن ثقافتنا أولاً.

إذا فالصلاح بالمعنى القرآني يمتد لغير المسلمين؛ ويشمل صالحي العامة؛ فكم عدد السلف الصالح الذين أهمل المسلمون تراجمهم وبيان صلاحهم العملي؟!

والآن سنشير لأضداد الصلاح؛ وأضداد الصالحين- فبضدها تتميز الأشياء -ومن هذه الأضداد سنعرف معالم الصلاح القرآني؛ ثم نطبقه في معرفة الصالحين؛ الصلاح ضد الظلم؛ كما في قصة ذي القرنين؛ وعلى هذا فمن كان ظالماً فليس من السلف الصالح؛ والظلم ومعالمه مبينة في القرآن :

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) (الكهف)

الصلاح ضد الإجمام؛ كما في سورة طه فاقراً؛ والإجمام ومعالمه يعرف من القرآن؛ فمن كان مجرمًا لا يكون من السلف الصالح؛

(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) (طه)

الصلاح ضد تحمل الظلم؛ (وقد خاب من حمل ظلماً)؛ أي ورثه عن سلفه فهو يظلم به أو ارتكبه؛ أو كلاهما؛ والمعنى الأول ألصق :

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) (طه)

الصلاح ضد الفساد؛ وهذا أكمل الأضداد وأجمعها؛ وعلى هذا فالصالحون ضد الفاسدين والمصلحون أكمل؛ والمفسدون أسوأ:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ] (12) البقرة) ومن علامات المفسدين أنهم يظنون أنهم مصلحون؛ تتساقط على جوانبهم الدماء والمظالم ويتخلف الناس وهم لا يشعرون أنهم مفسدون كما في الآية، ولأن الفساد ضد كامل للصلاح؛

فتذكر أن من علامات الإفساد الكبرى اقتران حسن القول مع إساءة الفعل! فمن أولى بهذا؟

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَيْسَ الْمِهَادُ] (206) البقرة)

الصلاح ضد الكبر والاستكبار والإعراض عن الحق والكفر (الجحود بعد علم) وبخس الناس أشياءهم؛ كل هذا من أضداد

الصالح في آيات كثيرة؛ ومن تلك الآيات هذه الآيات في وصف الفساد؛ فزدها إذاً من معالم الصلاح وعلامات المصلحين:
(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (85) هود
الصالح ضد السرقة فالسرقة من الإفساد في الأرض:

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) (٧٣) [يوسف]
الصد عن سبيل الله من علامات الإفساد؛ وضد ذلك من الإصلاح وهو الدلالة على سبيل الله والتشجيع عليه وقد سبق الكفر:
(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) (٨٨) [النحل]
والدلالة على سبيل الله لا سبيل السلف - لاختلافهم وتضادهم وتفاوتهم- هو من أسس الإصلاح في هذا الزمان؛ ولن يكون إلا من مصدر يقيني كالقرآن

والإصلاح - تفعيل الصلاح - ضد الإسراف؛ والإسراف يختلف عن التبذير في أمور؛ التبذير خاص بالمال؛ والإسراف أشمل فتأملوه:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ] (152) الشعراء
والإصلاح (تفعيل الصلاح) ضد العلو وضد الجحود وضد الظلم؛ فالمتعالمون والظالمون والجاحدون للحق لن يكونوا سلفاً صالحاً:

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (١٤) [النمل]
والإصلاح وعمل الصالحات وجامع ذلك الصلاح هو ضد المكر واغتيال المخالفين في الدين أو الرأي؛ تدبروا الآيات:
(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (٤٩) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَكَمْ كُنَّا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ] (51) النمل

تلحظون أن خصال الصلاح حتى الآن أخلاق ومبادئ عالمية إنسانية فطرية؛ لا تختص بالمسلمين؛ بل لعل المسلمين أبعد الأمم عن هذه الخصال!

سنوات

الصالح ضد جعل الناس شيعاً؛ مع استضعاف طائفة منهم؛ وسبب هذا هو العلو؛ وأكثر من يقال عنهم (سلف) كانت فيهم هذه الخصلة:

(إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ جَعَلْ أَهْلُهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ] (5) القصص

الصالح ضد الإفساد بالمال؛ وسبب الإفساد بالمال كثيرة؛ من ربا وترف وتبذير واشتراء ذمم وبخل وامساك عن الفقراء.. الخ:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (77) القصص

وقد أطلنا في معالم الفساد لأنه ضد كلِّ للصالح؛ ونختم هذا الضد بهذه الآية؛ فالفساد ضد للإيمان والعمل الصالح معاً:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ] (28) ص

الشهادة لله والعدل من معالم الصلاح؛ فمتى قرأتم الشهادة لله في كتب السلف؟! متى وجدتم من يشهرها ويؤكددها بالآيات؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (٩) (المائدة)

دلنا السياق هنا؛ فالآية التي قبلها فيها الشهادة لله والعدل مع الأعداء؛ وهي معاني فقيرة جداً عند من يطلق عليهم في السائد (السلف الصالح).

بل بلغ الأمر باتباع السلف الصالح مذهباً أنهم يعادون من تمسك بمعايير الصلاح القرآني من عدل مع الآخر أو شهادة لله؛ وهذا أبلغ في الفساد؛ وهذا الظلم والشهادة لغير الله (من مذهب أو شيخ أو تيار)؛ إنما تعلمه الأتباع من سلف يفتقر لهذه المبادئ؛ بل يعادي أصحابها ويضلُّهم ويقتلهم!

ونختم بآية ربما نفهمها اليوم لأول مرة - على الأقل في الأوساط العامة- نعرف بها لماذا وراثة الأرض في غير المسلمين!

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (١٠٥) [الأنبياء]

فمعالم الصلاح القرآني - من عدل وصدق وشهادة بالحق وتواضع ومحاربة للظلم والسرقة الخ - متحققة في غير المسلمين أكثر؛ لذلك ورثوا الأرض! فلا غرابة.

اعترف أن مادة الصلاح وأضدادها في القرآن مادة ضخمة جداً؛ ولذلك أقول لكم : لم أستوفِ جميع خصال الصلاح؛ لكنني ذكرت الأبرز؛ المعالم العامة فقط.

معنى (السلف) في القرآن الكريم! - الجزء الرابع .

نكرر: الوصف للفعل فقط؛ أعني لا أقصد بوصف الفعل بأنه سلفي أن السلفية يفعلونه؛ نعوذ بالله من هذا؛ وإنما ننسب الفعل للماضي؛ بأنه فعل سلف قبل نزول النص؛ وهذا واضح؛ ونعتذر من التكرار الممل لهذا الايضاح؛ لأن الخصوم يلجؤون للقص واللرق ويفترون علينا؛ وسيضل عنهم ما كانوا يفترون يوم (تبلوا مل نفس ما أسلفت).

وردت لفظة (سلف) في القرآن ثمان مرات؛ سبع منها مذمومة؛ وواحدة ممدوحة؛ وورد معناها عشرات المرات في عدة صيغ، وسنورد المواضع الثمانية التي وردت فيها كلمة (سلف) صريحة؛ ثم نورد بعض معانيها التي كانت في قوالب لفظية أخرى، كالآباء والمتبوعين.. الخ.

الموضع الأول: في سورة المائدة (عفا الله عما سلف)، ولا ريب أن الذنب المعفو عنه مذموم ويخطيء من يقتدي بذلك الفعل السلفي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذِي بَالِغُ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ] (95) المائدة

وعندما أقول ذلك الفعل السلفي أقصد الوصف لا النسبة؛ أعني لا أقصد إلا وصف الفعل بأنه سلفي؛ وليس المقصود نسبته إلى السلفية؛ فليعلم هذا.

الموضع الثاني من سورة الأنفال؛ وفيه (يغفر لهم ما قد سلف)؛ ولا ريب أن هذا الفعل المغفور كان ذنباً لا يجوز الاقتداء به :

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37) [الأنفال]

الموضع الثالث في سورة يونس (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت)؛ أي تختبر ما أسلفت من خير أو شر؛ فالفعل السلفي فيه هذا وهذا:

(هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَوَضَّلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ] (30) يونس

والملاحظ في هذه الآية أنها عامة لهذه الأمة وغيرها (كل نفس)؛ وأن الافتراء والكذب هو أخطر تلك الأعمال السلفية؛ فلذلك يضل عنهم ولا يجدونه؛ وفي الآية دعوة للحذر من الكذب؛ لأنه يؤسس أمماً تتدين بالمعاصي افتراء على الله ويحسبون أنهم مهتدون!

راجع مقال (هل تعبد الله أم تعبد نفسك)؟

الموضع الرابع في الزخرف؛ عن فرعون وقومه (فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين)؛ وهذه الآية عجيبة جداً؛ وفيها أسرار عظيمة !

(فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ٥٦ ﴿٥٦﴾ [الزخرف]

ولا ريب أنك كباحت تستطيع معرفة (الآخرين) بعد استيفاء سلوك فرعون؛ وهل هناك فرعون لهذه الأمة مثلاً؟ وهل تم اتخاذه سلفاً.. الخ؛ فالآية كاشفة.

صحيح أن كل أمة فيها فراعين كفرعون والنمرود؛ وأن هذه الأمة فيها فراعين كالحجاج وأشباهه؛ لكن الآية تشير إلى مؤسس الفرعنة عند الآخرين! فمن هم؟

من هؤلاء (الآخرين) المذكورون في الآية؟

لماذا لم يقل (فجعلناهم سلفاً ومثلاً لآخرين)؟

لماذا قال (للآخرين) بالتعريف؟!

وكيف لنا أن نعرفهم؟

فرعون وقومه سلف مذموم؛ سار على نهجهم سلف آخرون؛ وهم مثلهم في السلوك الفرعوني

كأن الله يقول لم أذكر قصة فرعون عبثاً؛ هناك سلوك ومنهج وطريق؛ كأن الله يقول لنا ادرسوا خصال فرعون وقومه وسلوكهم؛ واحذروا أن يكون هو وقومه سلفكم؛ واحذروا أن تكونه مثلهم.

لاحظ: (سلفاً ومثلاً) معاً!

الموضع الخامس في سورة البقرة؛ وهو خاص بالربا (فله ما سلف)؛ فالربا هو ذلك الفعل السلفي المحرم؛ فهو مذموم ليس

للاقتداء:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (275) البقرة

الموضع السادس في النساء؛ (ولا تتكحوا ما نکح آبواکم من النساء إلا ما قد سلف)؛ فهو فعل سلفي مذموم!
(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا] (22) النساء

نكرر: الوصف للفعل فقط؛ أعني لا أقصد بوصف الفعل بأنه سلفي أن السلفية يفعلونه؛ نعوذ بالله من هذا؛ وإنما ننسب الفعل للماضي؛ بأنه فعل سلف قبل نزول النص؛ وهذا واضح؛ ونعتذر من التكرار الممل لهذا الإيضاح؛ لأن الخصوم يلجؤون للقص واللزق ويفترون علينا؛ وسيضل عنهم ما كانوا يفترنون يوم (تبلىوا مل نفس ما أسلفت).

الموضع السابع؛ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)
(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا] (23) النساء

الموضع الثامن والأخير في الحاقة؛ وهو الموضع الوحيد الممدوح؛ (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية):
(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) [الحاقة]

والخلاصة في اللفظ نفسه (سلف) أنه ورد في القرآن الكريم ثمان مرات؛ فيها ست مذمومة بالصريح؛ وواحدة ممدوحة بالصريح؛ وآية يونس شاملة لهذا وهذا؛ وكلها وردت في حق أفعال لا أشخاص؛ وكلها أفعال لا أسماء؛ إلا آية الزخرف فهي في حق أشخاص = فرعون وقومه؛ وهي اسم لا فعل أيضاً؛ وهذا يحتاج لتدبر.

قراءة في سلفية فرعون! - الجزء الخامس .

فلا يجوز خلط الملوك العادلين كعمر بن عبد العزيز بمن انطبقت عليه معظم خصائص فرعون؛ فاعتبار كل حاكم للمسلمين فرعوناً غلط بين.

البعض يحب التعميم؛ وهؤلاء أصحاب سلطة غالباً؛ فهم يذمون كل حكام المسلمين ليقولوا للناس زوراً؛ نحن أهل العدل والأمانة.. الخ؛ كلا؛ المعلومة لله.

نحن هنا نريد العلم؛ والعلم لله؛ والشهادة لله؛ فالواجب الحث عن إجابة سؤال: من أقرب حكام المسلمين إلى فرعون في خصائصه وسبقه وجبروته ومكره.. الخ.

فرعون لك يجعل نفسه سلفاً؛ بل جعله الله مع قومه (سلفاً ومثلاً للآخرين)؛ ولكنه سلف مذموم؛ فليس كل السلف صالحاً بدهاء؛ وكما قلنا في استعراض لفظ (سلف) في القرآن أن منها آية واحدة فقط تتحدث عن الأشخاص؛ وهي الخاصة بفرعون؛ اقرأ إن شئت:

(وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (56) [الزخرف]

لا يستطيع مسلم في هذه الدنيا أن يشكك في هذه الآية ولا أن يقول بعد إيمانه بها أن السلف كلهم صالح؛ والآية تبعث روحاً تجديدية بوجوب الفرز؛ إنما المشكلة الكبرى تكمن في معرفة أولئك (الآخرين) الذي ذكر الله نفسه أنه جعل فرعون وقومه سلفاً لهم؛ بل وجعلهم مثلاً لهم؛ فمن هم هؤلاء؟!!

ولا يستطيع أحد أن يقول أنها في حق أمة قامت بعد فرعون من قومه يقتدون به؛ فقد انتهى رفع شعار فرعون في مصر بعده وكانت العاقبة لبني إسرائيل. ولا يجوز بالاعتباط أن نقول أن المراد بهؤلاء هم الدولة الفلانية أو الحاكم الفلاني؛ الاعتباط هنا - أي بالهوى والعصبية - هو جريمة في حق القرآن؛ وإنما بالعلم نعم؛ وأول العلم أن نصدق بهذه الآية؛ بأن الله جعل فرعون وقومه (سلفاً ومثلاً للآخرين)؛ كما قال الله؛ وأن القرآن كله علم وهدى؛ فلا يجوز إهمال هذه الآية و (تطنيشها) بحكم أنها آية واحدة فقط !

ثانياً: نتذكر هنا أنه قال (للآخرين) وليس (لآخرين)؛ فما الفرق بينهما؟
ثالثاً: كيف نضمن أننا لسنا أولئك (الآخرين) الذي ذكرهم الله؟ وما السبيل إلى طمأننتنا أننا لسنا المقصودين؟! خاصة وأننا (آخر الأمم) فعلاً!

رابعاً: ما معنى المثل في الآية؟! وهل يعني العبرة أم المثل؟ وما الفرق بين العبرة والمثل؟ وما معنى (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم)!

لا نستطيع الإجابة ولا الاطمئنان إلا بدراسة (سلفية فرعون)؛ ولماذا جعله الله سلفاً للآخرين؟ وما هي خصائص ثقافته وحكمه وظلمه وأمواله وسحرته؟ وكل هذا نبخته في القرآن الكريم؛ ثم بعد استخراج خصائص فرعون؛ من علو في الأرض وإفساد وكبر واستضعاف للبعض وكبده وجرمه وأمواله وهاماته وقارونه؛ بعد استخراج هذه الخصائص النفسية والاجتماعية والمالية والسلوكية.. الخ لفرعون؛ وبعد إحكام الثقافة القرآنية؛ بعد هذا كله نفتح الحديث والتاريخ! فننظر في أحوال الحكام عبر التاريخ من بعد فرعون؛ بمن فيهم المسلمون؛ لنبحث عن أقرب الناس لخصائص فرعون؛ ومنها أنه أيضاً كان سلفاً لمن بعده! وهنا يجب العدل؛ فلا يجوز خلط الملوك العادلين كعمر بن عبد العزيز بمن انطبقت عليه معظم خصائص فرعون؛ فاعتبار كل حاكم للمسلمين فرعوناً غلط بين.

البعض يحب التعميم؛ وهؤلاء أصحاب سلطة غالباً؛ فهم يذمون كل حكام المسلمين ليقولوا للناس زوراً؛ نحن أهل العدل والأمانة.. الخ؛ كلا؛ المعلومة لله.

نحن هنا نريد العلم؛ والعلم لله؛ والشهادة لله؛ فالواجب الحث عن إجابة سؤال: من أقرب حكام المسلمين إلى فرعون في خصائصه وسبقه وجبروته ومكره.. الخ. ولا نستطيع معرفة هذا إلا عبر الحديث والتاريخ؛ فيتم بحث كل حديث يقول (فلان فرعون هذه الأمة) ويتم مطابقة خصائصه مع خصائص فرعون في القرآن؛ فإذا وجدنا أن الأحاديث ذكرت شخصين فقط؛ ذكرت في كل منهما أنه (فرعون هذه الأمة) فلنقارنهما مع سيرة فرعون وننظر؛ هذا من حيث تحقق المتن؛ ثم ننظر في الإسناد - بعد النظر في المتن - فننظر أي الحديثين أقرب للصحة وأكثر إسانيد وأوثق رجالاً بالحكم المعرفي العلمي وليس الحكم المذهبي؛ ثم ننظر من منهما كان له سلطان وحكم ووزراء وسحرة وأموال السلطنة.. الخ؛ ومن منهما كان صاحب تفريق بين الشعب واستضعاف لفئة وتم اتخاذه سلفاً.. الخ؛ فإذا وجدنا أن أحدهما قتل يوم بدر ولم تكن له دولة ولا وزراء ولا شعب يفرق بين فئاته ولم يتخذه أحد سلفاً والسند فيه منقطع فلماذا يكون فرعون؟ وإذا وجدنا أن الآخر فيه كل هذه الخصائص وأكثر وأثره في الأمة على جميع المستويات والحديث فيه أصح وأكثر طرقاً فلماذا نحمله ولماذا لا نحذر؟

بالطبع الحديث ظني في الرجلين سواء من قتل منهما يوم بدر أو من تأخر ولسنا من المتحمسين للاستشهاد بما هب ودب من الحديث؛ ولنا موقف معروف؛ لكننا في الوقت نفسه الذي نتشدد فيه في قبول الحديث - بما هو أشد من شرط الشيخين - إلا أننا في الوقت نفسه نقبل الحديث الذي له حاضنة قرآنية.

الحاضنة القرآنية ضرورية في قبول أي حديث ولو ضعف إسناده؛ فكيف مع قوة الإسناد؟ وتعدد الطرق؟ وتوفر الدواعي على كتمانها؟ ثم وصل رغم الظروف كلها؟!!

الأحاديث الظنية - كحديث (فرعون هذه الأمة) - أمرها واسع؛ لا يهتم من ردها بإنكار السنة؛ ولا من قبلها بوضع الحديث؛ هنا الإجتهد؛ وكلّ حسب قناعته؛ أما الأحاديث التي يصح إسناده مذهبياً وتخالف القرآن أو التي ضعف إسناده وليس لها حاضنة قرآنية فردها ألصق بالدين والعقل؛ وما قلّ فيه كفاية.